الحضارة والفقر الروحي

على مستوى كبار الباحثين في أوضاع الحضارة الراهنة ومستقبلها، من أولئك الذين لا يزالون يمتلكون أخلاقاً تؤهلهم للاهتمام بالمصير الإجمالي للبشرية كلها، هناك إجماع على أن هذه الحضارة الراهنة باتت في وضع مزرٍ من الفقر الروحي المدقع. ويشكل هذا الأمر نوعاً من "انهيار التوازن" بين ما هو مادي، وما هو أخلاقي قيميّ في علاقات البشر العاديين كما في علاقات المجتمعات وعلاقات الدول على حدّ سواء.

ويتجلى هذا الانهيار في صيغ شتى قد يكون أبرزها: على المستوى الدولي، فقدان روح العدالة في التعامل المتبادل، والتهديد بتشغيل الترسانات العسكرية وفق شريعة الغاب، وابتذال قيمة الحياة البشرية لمستضعفي الأرض، الخ..

وعلى المستوى الثقافي الإنساني، تغييب ما يرتبط بالجهد العقلي والنفسي والروحي الإنساني النبيل المستند إلى القيم الأولية الناظمة لعملية الوجود الإنساني وتطوره وبقائه، وتسفيل الإبداع المتعلق بذلك والمنبثق عنه لصالح ماديّة رخيصة تستند إلى عالم يهتم –أساساً – بالمتاجرة وتسليع الإنسان.

وعلى مستوى الأفراد، وخصوصاً في المجتمعات المستضعفة المنهوبة، يتجلى ذلك الانهيار في نوع من استرخاص الذات واختلال البنيان النفسي الذي لا تضبطه

منظومة قيمية ثابتة، أو بالأحرى إن هناك نوعاً من الصراع الفصامي داخل الذات: بين قيم المجتمع الذي تنتمي إليه تلك الذات- وهي قيم تعبر عنها ثقافته المتوارثة- وبين القيم الاستهلاكية الابتذالية المعممة بقوة الفعل الإمبريالي العالمي ذي السمات الشايلوكية أساساً، حيث الامتلاك هو قيمة القيم... وبالطبع، الامتلاك بكل الوسائل المتاحة. إزاء هذا الوضع الذي أخذ يتفاقم بحدة منذ أكثر من عقدين، والذي بات يبشر (بعولمة) تحيل الفرد البشري- إن كتب لها التحقق- إلى نوع من حيوان منتج مستهلك، لا ذاكرة له ولا تاريخ ولا اهتمامات بمستقبله ومصير نوعه.. وليس لديه ما يؤهله لإعادة التفكير في معنى وجوده في العالم، إلى أين يمكن للأدب والفن -بمختلف أجناسهما- أن يتجها.. وباعتبارهما المحرك والمحرض لحركة الفكر الذي يجب أن يعيد صياغة معنى الوجود البشري في آفاق جديدة؟!.

في اعتقادي أن ما أنجز من إبداع أدبي /فني/ فكري خلال هذا القرن العشرين وبعض من أواخر القرن التاسع عشر، على اختلاف مدارسه واتجاهاته، قد أصبح -رغم ملئه لمراحله المختلفة- غير ناجع للإفادة منه، بتقليده أو حتى بتجديده، في محاربة ذلك الفقر الروحي الحضاري المشار إليه قبلاً. وبالطبع، يجب أن أحصر إشارتي هنا بسائر المنجزات (الواقعية)من الواقعية النقدية إلى ما سمي الواقعية السحرية، وبسائر المنجزات التي سميت حداثية أيضاً.. وإن كان هذا الحصر لا يعني انعدام الاستفادة من كل ما هو أصيل في ذلك الكم الفريد من الإنجازات الإبداعية الفذة.

ويخيل إليّ هنا أننا بحاجة إلى نوع من رومانسية جديدة

مجددة تعيد للفرد الإحساس بذاته وروحه في مواجهة عولمة تريد محقهما، مثلما تعيد إليه إدراكاً جديداً معمقاً لمعنى وجوده في مجتمعه وفي العالم والكون. وبالطبع لا يمكننا سلفاً تحديد سمات هذه الرومانسية، وحدود اختلافها واتفاقها مع الرومانسية القديمة، ولكننا نستطيع القول بأنها لا بد أن تستفيد من كل ما هو أصيل في الثقافات البشرية التي تؤكد على قيمة الحياة الإنسانية العادلة؛ الفردية والجمعية، فوق هذا الكوكب.. وعلى إعادة إغناء الحضارة بما يكفل توازن ما هو روحي مع ما هو مادي، كضرورة حتمية للبقاء والازدهار.

❑❑